وضرب هذا فيأخذون من رصيد حسناته فالإفلاس الحقيقي إنما يكون في الدين والأخلاق ويظهر خطره بصورة أكبر يوم القيامة يوم الحسرة والندامة حيث يجتمع حوله الدائنون ليستوفوا حقوقهم منه ، فالعملة المتداولة يوم القيامة ليست هي الدرهم ولا الدينار بل هي الحسنات والسيئات ، حتى إذا فنيت حسناته ولم يقض ما عليه أخذ من سيئاتهم تعويضًا لهم عما سببه لهم من أضرار في الدنيا وطرحت عليه ثم طرح في النار .

ففي اللحظة التي يعصي فيها العبد ربه كارتكاب الفاحشة مثلاً فإن الشيطان يزين له الشيء القبيح فيراه حسنًا وينسيه سوء العاقبة ويجعله لا يرى عظمة ربه وأنه مطلع عليه يرى عمله ويسمع قوله فلا يفكر حينئذٍ إلا في إرواء شهوته ثم بعد أن يقضي وطره يتذكر ربه ويندم على ما فعله فيتوب ويستغفر لذنبه .

* * *

التوحيد الخالص

ولذلك فالمعصية كما بيَّنا خدش لإيمان العبد وشرخ في جدار الدين وقدح في اليقين وخصم من الرصيد الإيماني للمؤمن فيقل رصيده من الإيمان وينقص ولذلك فالإيمان الكامل الذي يريدنا ربنا أن نصل إليه إنما هو ذلك الإيمان الذي لا يخالطه شرك أو شك أو لا يلابسه ظلم أو يصاحبه ذنب أو إثم كما قال عز وجل : ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٢] .

وقد ضرب الله لنا مثلاً لهذا الإيمان الكامل وهذا اليقين الخالص بنبي الله يوسف عليه السلام وذلك بترفعه عن فعل الفاحشة حينما دعته إليها امرأة العزيز فمنعه إيمانه بالله وعصمه تذكره لسوء المآل من إجابتها لما دعته إليه ولا عجب في ذلك فهو من عباد الله المخلصين ولذلك قال لها : ﴿**مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ**

الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

وأيضًا يتضح ذلك جليًا في قوله لصاحبيه في السجن: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨] أي: لا يصلح لنا ولا يصح منا إلا التوحيد الخالص والإيمان الكامل ولذلك بالغ في نفي أي شائبة من شوائب الشرك عن نفسه وعن آبائه الموحدين فقال: ﴿مِن شَيْءٍ﴾.

وضرب الله لنا مثلاً بالإيمان المخدوش أو المنقوص بإخوة يوسف الذين حسدوه لمكانته من أبيهم وأرادوا قتله ثم عدلوا عن ذلك وقرروا إلقاءه في غيابة الجب وإنما كان ذلك في لحظة غفلة استجابوا فيها لهوى النفس واستسلموا فيها لوسوسة الشيطان فسلب منهم لباس الإيمان كما قال أبوهم يعقوب: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥] وكما قال يوسف نفسه في آخر القصة: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠].

ولكن عرف الإخوة خطأهم في آخر الأمر وتابوا إلى الله عز وجل. وعقَّب الله على قصة يوسف مع إخوته فقال في شأن إخوة يوسف وشأن من هو على شاكلتهم: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] ثم قال في حق الأنبياء ومن سار على نهجهم واتبعهم بإحسان: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

ففي شأن أهل الغفلة والعصيان أثبت لهم الشرك ونفى عنهم الإيمان وفي شأن أهل الإخلاص والتوحيد نفى عنهم الشرك وأثبت لهم البصيرة واليقين. وقد أوضحنا ذلك بمزيد من التفصيل في أكثر من موضع عند تفسيرنا لسورة «يوسف» عليه السلام وذلك في كتابنا «يوسف من الجُبّ إلى الملك» فليرجع إليه من أراد.

* * *

الحياء من الإيمان

وهناك حديث نبوي آخر يوضح لنا بجلاء المعنى المقصود من الحديث الذي ذكرناه منذ قليل وهو قوله ﷺ: «**إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان فوق رأسه كأنه ظلة ثم إذا أقلع رجع إليه الإيمان**». وهذا الحديث الذي يوضح ذلك هو قوله ﷺ في الحديث الذي رواه البيهقي في «شعب الإيمان»: «**الحياء والإيمان قرينان فإذا رفع أحدهما رفع الآخر**» وفي رواية أخرى: «**الحياء والإيمان قرينان فإذا سلب أحدهما تبعه الآخر**».

وقد خص الرسول ﷺ الحياء بالذكر دون غيره وجعله قرينًا ملازمًا للإيمان لأنه علامة عليه فحيثما وجد الحياء وجد الإيمان وإذا رفع الحياء عن صاحبه نزع عنه الإيمان. ولعل السر أيضًا في اختيار الحياء دون غيره من الفضائل أن الحياء لا يأتي إلا بخير كما جاء في حديث مسلم في «صحيحه» فالحياء من الله ومن الناس هو الذي يمنع صاحبه من اقتراف الذنوب والآثام فمن اتصف بالحياء فإنه يخشى أن يظهر متلبسًا بنقيصة يعاب بها أو يلام عليها فيحط ذلك من قدره أمام الناس فضلاً عن حيائه من ربه أن يراه حيث نهاه، فربه المطلع عليه أحق من أن يستحيى منه، فالحياء فيه ترفُّع وإباء ونفور من النقائص والآثام ولهذا أيضًا كان التركيز على الحياء كشعبة من شعب الإيمان وذلك في حديث مسلم في «صحيحه»: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان**» وفي حديث أحمد والترمذي: «**الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة**» وفي حديث البخاري: «**إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت**» لأن الحياء هو الذي يحول بين العبد وبين ارتكاب الذنب فإذا فقد حياءه فإنه يفعل ما يحلو له ولن يتورع عن فعل ما يغضب الله عز وجل.

وهكذا فمن يتجرد من الحياء ويعصي ربه أو يفعل الفاحشة فإنه في هذه اللحظة

يرتفع عنه الإيمان ولا يعود إليه حتى يعود إلى رشده ويقلع عن ذنبه ويكون حاله في هذا الوضع أشبه بحال من أغمي عليه فقط ولكنه لم يفقد حياته بعدُ أو يُمت بل فقد وعيه إلى حين ولكن يُرجى له أن يعود إليه وعيه المفقود متى أفاق من غيبوبته.

* * *

غيبوبة وليست وفاة

ولذلك فإنه لو رئي شخص سقط مغشيًا عليه وفقد الوعي والإحساس بمن حوله فإنه في هذا الحال لا يقال عنه بأنه مات أو فارق الحياة أو أن الروح قد انفصلت عنه انفصالاً أبديًا لا رجوع لها بعده إليه في الدنيا بل هو أشبه ما يكون بالنائم الذي يتوفى الله نفسه ويمسك روحه عنده عند نومه ثم يردها إليه أو يرسلها مرة أخرى إذا كان في العمر بقية.

فالذي أغشي عليه مثلاً بسبب تعرضه لحادث معين أو لصدمة شديدة فقد على إثرها الوعي فإنما هو في حالة إغماء أو ارتفاع مؤقت للروح ولو قدر له الحياة وأمكن إسعافه بسرعة فإنه يعود إليه بإذن ربه وعيه من جديد. فلا ينبغي إذن أن نحكم عليه بالموت ونسارع في إصدار شهادة وفاة له، أو نقول بأنه حالة ميئوس من شفائها ونترك محاولة إنقاذه طالما أن فيه نفَسًا يتردد بين الجوانح أو عرقًا ينبض بالحياة.

وبالمثل فإنه لا ينبغي لنا أن نحكم بالكفر على من كان عاصيًا فرفع عنه الإيمان رفعًا مؤقتًا وإنما نقول: إنه ليس في حالة كمال الإيمان بل في إيمانه نقص ولذلك ينبغي أن نتوقف في الحكم عليه بالكفر بعد أن ارتفع الإيمان عنه فهو رفع مؤقت كما ذكرنا من قبل وعلينا أن ننتظر ونصبر هل سيقلع عن الذنب أم سيستمر على ما هو عليه من الغي؟ ولا نعجل بدمغه بالكفر والفسق والخروج من الملة بل علينا أن نترفق به ونرجو له الخير ونحسن به الظن ونلتمس له العذر وندعو له بسرعة الفيء ولا سيما إذا كان

معروفًا بالصلاح من قبلُ ولم يكن خطؤه عن إصرار وعمد ولكن زلّت قدمه وغلبت عليه نفسه .

بل ينبغي علينا أن نقيله من عثرته ونقدم له يد العون ليعود إلى حظيرة الإيمان مرة أخرى لا أن نتخلى عنه ونسلمه إلى الشيطان ينفرد به ويجره إلى دروب الغواية والفساد أو يهوي به في أودية الرذيلة والضلال فكما ورد في حديث ابن ماجه : «**كل ابن آدم خطَّاء ، وخير الخطائين التوابون**». وصدق الله إذ يقول : ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٣٥] . ويقول عز وجل : ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [الزمر: ٥٣].

ومع ذلك فالمؤمن كامل الإيمان لا يرضى لنفسه أو يسمح لها أن تغفل غفلة ترفع عنها سلطان الإيمان بالكلية . ولذلك فهو في حالة رباط واستنفار دائم وتعبئة كاملة ووعي مستمر ويقف بالمرصاد لدواعي النفس ووساوس الشيطان خشية أن يتسلل إلى حماه ما يقلل ما لديه من رصيد الإيمان أو أن تتسرب إلى داخل قلبه معصية تحدث شرخًا في علاقته بمولاه أو أن تصيبه غفلة تبعده عن ساحات القرب والكمال .

وأيضًا المؤمن الحق إذا بدر منه ذنب فإنه لا يستمرئ البقاء على المعصية بل ينهض سريعًا من كبوته لأنه يستحيي من ربه لشعوره دومًا أنه في معيته فيبادر بالتوبة والعمل الصالح ليسد هذا الخلل الحادث وليجبر هذا النقص الطارئ وليرأب هذا الصدع أو الشرخ الذي أحدثه هذا الذنب العابر فالحسنات يذهبن السيئات ، وإلا فإنه لو تتابعت الذنوب دون توبةٍ من العبد نصوحٍ لهبط مؤشر الإيمان ولقلَّ رصيده من الحسنات وعندئذٍ فإنه يُخشى عليه من سوء المآل فالذنوب كما أسلفنا ثقوب في جدار الدين ولو كثرت الثقوب واتسعت الشروخ والفتوق دون ترميم فوري أو

إصلاح لتقوّض البنيان ولانهار صرح الإيمان.

أما غير المؤمن فإنه لا يبالي باقتراف الذنوب ولا يكترث بارتكاب الفواحش أو إتيان القبائح بل يداوم على فعل ذلك وإذا نصحه أحد أخذته العزة بالإثم فمثل هذا يبتلى بموت القلب وشتات الأمر ووسواس الصدر والانغماس في الذنب حتى يصبح من الصعب عليه الرجوع إلى الحق فهو كمن قال الله فيهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، فقد ضل ضلالاً بعيداً وانحرف عن الصراط انحرافًا شديداً حتى إذا ناداه مشفق أو ناصح فإنه لا يسمع نداءه كمن قال الله فيهم: ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] فأنى له أن يسمع أو يستجيب؟

فقد أصبح في غيبوبة شديدة تفضي بصاحبها إلى عواقب وخيمة قد لا يفيق منها إلا على سكرة الموت أو حسرة الفوت.

* * *

المسلم نسيج وحده

ولذلك فشأن المؤمن أنه يسابق عمره ويتفوق على نفسه ويتخفف من متاع الدنيا ويزهد في حطامها الفاني استعداداً لأهوال يوم القيامة لأنه أيقن أنه كادح إلى ربه كدحًا فملاقيه ولذلك فهو ذاهب وراجع إليه من الآن دون تسويف أو تأجيل.

هو يربأ بنفسه أن يظل مذبذبًا بين فعل المعاصي والطاعات أو أن يكون قانعًا بالفُتات أو راضيًا بالوقوف على درجة واحدة كلما صعد إليها نزل عنها فأيام العمر تنقضي سريعة وكل يوم يمضي يدنيه من لقاء ربه ولذلك فهو لا يخلد إلى الأرض بل يشغل نفسه بأعمال البر والصلاح حتى تكون الجنة هي منتهاه ومثواه.

هو قد باع نفسه لله فهو ماضٍ في سبيله لا يلوي على شيء، يعض على دينه بالنواجذ، ولا تفتر له عزيمة ولا تلين له قناة.

هو نسيجُ وحدَه قد روَّض نفسه وهذَّبها حتى لانت وأسلمت قيادها للحق واستقامت على أمر الله عز وجل ، همته عالية لا يرضى بالدون أو سفاسف الأمور .

ليست أعمال الخير بالنسبة له فلتة عابرة أو نزوة طارئة بل نهجًا ثابتًا يلتزم به ولا يحيد عنه قيدَ أُنملةٍ . هو يصرف جهده في تزكية نفسه وتطهيرها من الشوائب التي علقت بها في رحلة الحياة فهو دائم التعهد لقلبه ومراقبة نفسه ليردها إلى الحق إذا مالت عنه ، وبداخل قلبه ذلك المقياس الحساس الذي زوده به مولاه والذي يقوم دون تراخ أو إهمال ـ برصد وتسجيل ما يطرأ على النفس ـ دون أن تشعر ـ من تغيرات أو تجاوزات حتى يمكن معالجتها أو تقويم اعوجاجها وكبح جماحها قبل أن يطول الأمد ويستفحل الخطر ولا سيما في هذا الزمن ، زمن السموات المفتوحة حيث آلة الإعلام المهيمنة التي تصب فوق رءوسنا هذا الغثاء من الأكاذيب المضللة والبرامج المدمرة التي تبث في قلوبنا هذا السيل الجارف من الأغاني الهابطة والأفلام الساقطة التي تفسد القلب وتلوث النفس فلا يُرجى منها بعد ذلك خير أو نفع .

أما آن لنا نحن ـ المسلمين ـ أن نعتز بديننا وألا نخجل من قيمنا و أن نستأنف رسالتنا في الحياة فنقود البشرية المعذبة إلى بر الأمان ونذيقها برد العيش كما ذاقته من قبلُ حين عاشت في رحاب الإيمان تتفيأ ظلاله الوارفة تحت راية الإسلام ، دين الهداية والسكينة والسلام ، وسنعود لتلك القضية مرة أخرى بإذن الله عند تناولنا لموضوع «الرشد» وذلك في معرض تفسيرنا لهذه الآية الجامعة وهي قوله عز وجل من سورة «الحجرات» : ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** ﴾ [الحجرات: ٧] .

* * *

العندية المباركة

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٣].

لما نهى الله في الآية السابقة المؤمنين عن رفع الصوت في مجلس رسول الله ﷺ امتدح في هذه الآية الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ ولنقف وقفة مع قوله عز وجل في هذه الآية: ﴿ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ فعندية رسول الله ﷺ لها شرفها وقدرها وانظر إلى الحديث الذي رواه مسلم في «صحيحه» عن حنظلة بن الربيع رضي الله عنه قال: لقيني أبو بكر رضي الله عنه فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قلت: نافق حنظلة! قال: سبحان الله! ما تقول؟ قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة والنار كأنا نراها رأي العين فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً. قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ فقلت: نافق حنظلة يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «**وما ذاك؟**» فقلت له مثل ما قلت لأبي بكر، فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو أنكم تدومون على ما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة**».

وفي رواية لأحمد: أن حنظلة قال: يا رسول الله إنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا وزهدنا في الدنيا وكانت الآخرة كأنها رأي العين فإذا خرجنا من عندك فأنسنا في أهالينا وشممنا أولادنا أنكرنا أنفسنا فقال ﷺ: «**لو أنكم إذا خرجتم من عندي تكونون على حالكم عندي لزارتكم الملائكة في بيوتكم ولصافحتكم بطرق المدينة ولأظلتكم بأجنحتها**». وروى البزار عن أنس: قلنا: يا رسول الله إنا نكون عندك

على حال فإذا فارقناك كنا على غيره فقال: «**كيف أنتم وربكم؟**» قلنا: الله ربنا في السر والعلانية. فقال: «**ليس ذلكم النفاق**».

فبين لهم رسول الله ﷺ حينما خافوا على أنفسهم النفاق أن الحال عنده لا يقاس بغيره فإنه حال صفاء وذكر وحضور وقرب وفي حديث مسلم عن رب العزة أنه يقول لعبده يوم القيامة: «**عبدي مرضت فلم تعدني فيقول العبد وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ فيقول: مرض عبدي فلان فلو أنك عدته لوجدتني عنده**» فالمريض يكون في حالة ضعف وانكسار نفس مما يجعله رقيق القلب فيَّاض العين شديد التأثر بكل شيء لأنه قد نفض يده من الخلق واتجه بكل ذرة في كيانه إلى الله عز وجل ويرجو رحمته ولا يدع دعاءه طرفة عين ولذلك يتجلى عليه ربه برحمته ورضوانه وقربه ومؤانسته.

فإذا كانت عيادة المريض والجلوس عنده تجعل من يعوده في هذه الحالة الربانية وفي تلك المعية الإلهية فما بالك بالذي يكون عند رسول الله ويجلس في حضرته ويسمع كلامه؟ فعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة: «**رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم**» الحديث رواه الترمذي وأبو داود. فإذا كنت حاضراً في هذا المجلس المبارك وتسمع هذا ألا يرق قلبك وتصفو نفسك؟ فهو أمر لا يستطيع أن يداوم عليه أو يحتمله غير رسول الله ﷺ.

فعندية رسول الله ﷺ لا تدانيها عندية أخرى فهي عندية من عند الله مباركة طيبة تحفها الملائكة بأجنحتها فمجلسه ﷺ مجلس خير ينتقل بمن يجلس فيه إلى أعلى عليين ويرتقي به إلى مدارج ومعارج الكمال والنور واليقين ويسمو به إلى مصاف الملائكة المطهرين.

ولقد تكرر لفظ «عند» في سورة «الحجرات» مرتين فقط، المرة الأولى: تشير إلى عندية الرسول ﷺ والمرة الثانية: تشير إلى عندية الله عز وجل وذلك في قوله: ﴿**إِنَّ**

أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. ولعلنا نلاحظ ارتباط العنديتين الشريفتين بكلمة «التقوى»، ففي العندية الخاصة برسول الله ﷺ قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وفي العندية الخاصة بالله قال فيها: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ وكأن التقوى تقرب صاحبها من أشرف العنديات ومن ساحة القرب والرضوان وتجعله يحوز على الكرامة والمغفرة وعلى سعادة الدنيا والآخرة فموقفك من كتاب الله عز وجل ومن سنة نبيه ﷺ هو الذي يحدد مكانتك عند ربك يوم القيامة. وسنتكلم عن ذلك بالتفصيل إن شاء الله عند الحديث عن عندية الله عز وجل وذلك من خلال تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

وفي مجلسه ﷺ كان اتصال السماء بالأرض وكان جبريل عليه السلام ينزل فيه بالوحي وكان مجلسًا نورانيًا فيه رحمة وهداية وذكر، فلما مات ﷺ انقطع وتوقف هذا الخير فعن أنس رضي الله عنه في حديث مسلم: أن أبا بكر رضي الله عنه قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد وفاة الرسول ﷺ: انطلق بنا إلى أم أيمن وكانت حاضنة الرسول ﷺ نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها فلما انتهينا إليها بكت فقالا لها: ما يبكيك؟ أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ فقالت: إني لا أبكي لذلك ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان.

فالوحي ينزل وجبريل يهبط والآيات تترى فلما مات توقف هذا الخير وانقطع الوحي وقال أنس رضي الله عنه في حديث الترمذي وابن ماجه: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء وما فرغنا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا». وفي رواية أحمد عن أنس أنه قال: «شهدت رسول الله ﷺ يوم دخل علينا المدينة فلم أر يومًا أضوأ منه ولا أحسن منه».

فقد فرحت المدينة يوم قدومه فرحة أخرجت النساء من خدورهن وجعلت الرجال يتركون أعمالهم لينظروا إلى إشراقة وجهه المبارك وإلى طلعته البهية . فيوم قدومه المدينة أضاءت وأشرقت ويوم وفاته حزنت وأظلمت فقد ذهب عنها السراج المنير الذي كان يضيئها ويضيء قلوب أهلها فقد كان ﷺ يقيل عثرتهم ويثبتهم ويستغفر لهم ويبشرهم وكانوا يرون في وجهه الجنة وكانوا يسعدون في مجلسه بكلامه الشريف وسماع صوته وهو يتلو عليهم آيات الذكر الحكيم .

* * *

امتحان القلوب

والآن لننظر إلى قوله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [الحجرات: ٣] والامتحان له معنيان :

الأول: أن الله امتحن قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة حتى طهرت وصفت من الذنوب والأكدار حتى تتهيأ لقبول التقوى فالتخلية قبل التحلية كما بينَّا في الآية السابقة، وحتى تثبت صلاحيتها لتلقي الفيوضات الإلهية والتحلي بالفضائل الأخلاقية التي على رأسها فضيلة التقوى فتقف عند حدود الله ولا تتعداها .

وهذا المعنى مأخوذ من قولهم: امتحن الصائغ الذهب وذلك بصهره على النار لتصفيته من الشوائب والأكدار . فالله قد امتحن القلوب، قلوب الصحابة، فجعلها خالصة للتقوى وحذف كلمة «الخلوص» لدلالة الامتحان عليها .

وأصل الامتحان: اختبار الشخص أو الشيء وذلك ليعلم حاله وليتميز جيده من رديئه وهذا المعنى محال على الله عز وجل فالله لا حاجة به إلى امتحان العبد ليعلم حاله فهو يعلم ما في السموات وما في الأرض ولا يخفى عليه شيء فالله يمتحن عباده لا ليعلم شيئًا كان عنه مجهولاً ولكن ليكشف شيئًا كان عن الناس مستوراً

وعليه فمعنى امتحان الله لقلوبهم أنه كان يعلم صلاحيتها للتقوى من الأزل ولكنه اختبرها ببعض التكاليف وأدخلها في سلسلة من المشاقِّ والتجارب وألقى بها في أتون المحن والمصائب لتخرج من تلك البوتقة وهي أصفى ما تكون وكأنها الذهب الخالص الذي صفا من الأكدار وخلا من الشوائب .

فقد امتحنها الله لتظهر تقواها وليكشف عن حقيقة معدنها الأصيل وليعلم أنهم متقون حقًّا . ولذلك عدّى الفعل باللام لا بالباء فقال عز وجل : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى** ﴾ ولم يقل : (امتحن الله قلوبهم بالتقوى) فنحن نقول : امتحنته واختبرته بكذا لا لكذا وإنما كان ذلك ليشير أن تلك القلوب قد امتُحنت فعلاً بالتقوى وأنها اجتازت هذا الامتحان بنجاح وأثبتت قابليتها لحلول التقوى فيها فقد يمتحن القلب بالشيء فلا يقبله ولا يتجاوب معه .

فتعدية الفعل باللام في قوله : ﴿ **امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى** ﴾ للدلالة على أنها أصبحت بالفعل صالحة لتكون مستقرًّا للتقوى ومهيأة لأن تكون مستودعًا لها فكما أشرنا منذ قليل أن المرء قد يبدو للوهلة الأولى أنه قد تقبل التقوى أو استوعبها ولكن عند الشدائد والمحن سرعان ما تراه قد انقلب على وجهه أو ارتد على عقبه ولَفِظَ التقوى بعد أن عافتها نفسه ولم يستسغها قلبه وهم الذين ينطبق عليهم قوله عز وجل : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١] .

وهناك معنى آخر لكلمة «امتحن» وهو يؤيد هذا المعنى الذي ذكرناه ويقويه فالمعنى الأول لكلمة «امتحن» كما قلنا : هو اختبار الذهب بالنار ، وأما المعنى الآخر : فهو من قولهم : محن الأديم أو الإهاب وهو الجلد وذلك إذا بسطه ووسعه بواسطة الدبغ وذلك بإصلاحه ومعالجته كي يلين ويزول ما به من شعر ورطوبة ورائحة كريهة ، ففي الحديث المتفق عليه عن ابن عباس : أن النبي ﷺ قال : « **إذا دبغ الإهاب فقد طهر** » . ويمكن عندئذٍ الانتفاع به .

فالله عز وجل قد امتحن هذه القلوب وعالجها وخلصها من نقائصها وطهرها من

شوائبها وكانت نتيجة هذا الامتحان خلوص تلك القلوب واتساعها لقبول التقوىٰ فكلا المعنيين إذن لكلمة «امتحن» يؤدي إلىٰ غاية واحدة فمعنىٰ الامتحان: اختبار الشيء لتُعلم حقيقته فالممتحن يجري علىٰ ما يمتحنه تجربة بعد أخرىٰ ليعلم مدىٰ قوته وتحمله، فنحن نقول: امتحنه لأجل كذا، إذا جربه فوجده قويًّا عليه.

فالله قد امتحن قلوبهم فوجدها قوية علىٰ تحمل التقوىٰ وقادرة علىٰ القيام بتبعاتها والنهوض بأعبائها، فالتقوىٰ بذرة مباركة لا تنمو إلا في أرض طيبة طاهرة، فالتقوىٰ هبة عظيمة يختار الله لها القلوب بعد امتحان واختبار وبعد تخليص وتمحيص فلا يضعها إلا في قلب قد تهيأ لها وتمرن عليها وثبت أنه يستحقها وأنه أهل لها كما قال عز وجل: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

* * *

المصطفون الأطهار

وكلمة التقوىٰ: هي كلمة التوحيد وشعار هذا الدين كلمة لا إله إلا الله، فالله جعلهم أمناء علىٰ دينه بعد أن ثبت أنهم أهلٌ لذلك وبعد أن أخلصوا قلوبهم لله وجردوها من حظوظ الدنيا وأهواء النفوس فالاصطفاء بعد الصفاء، والاختيار بعد الاختبار، والتقريب بعد التجريب، فالتقوىٰ لا يعلم حقيقتها إلا عند المحن والشدائد فالله يمتحن القلوب بالأوامر والنواهي فمن أطاع الله واتبع رضاه وقدمه علىٰ هواه فإنه قد تمحص للتقوىٰ وصار قلبه صالحًا لها ومن لم يكن كذلك علم أنه لا يصلح للتقوىٰ ولا يقوىٰ علىٰ تكاليفها يقول عز وجل: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١] ويقول أيضًا: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

وامتحان القلب هنا وتوسعته يشبه شرح الصدر الذي ورد في عدة آيات من القرآن كقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الانعام: ١٢٥]، وقد امتن الله على رسوله ﷺ بأن شرح صدره حتى لا يضيق ذرعًا بما كان يلاقيه من أهل مكة من الكفر والعناد والصد عن سبيل الله وليتحمل ما كان منهم من السفه والإيذاء ولكن أوثرت كلمة «الامتحان» هنا على كلمة «الشرح» لوفائها بالمعنى المطلوب والخاص بامتحان القلوب.

ولكن قد يقول قائل كما أوضحنا من قبل: كيف امتحن الله هذه القلوب، وما هو الموقف أو المحنة التي أدخلهم الله فيها حتى يتبين خلوص قلوبهم للتقوى؟ والجواب كما أشرنا أيضًا من قبل أنه كان ذلك في غزوة «الحديبية» التي تعرضت سورة «الفتح» لتفاصيلها وهي السورة التي جاءت مباشرة قبل سورة «الحجرات».

ففي هذه الغزوة تعرَّض الصحابة لامتحان عصيب وأصيبوا بزلزال شديد مع أنه لم يقع في هذه الغزوة قتال ولكن تعرض فيها الصحابة لحرب الأعصاب ولأشد أنواع الاستفزاز من جانب كفار قريش الذين صدوهم عن دخول البيت وكانوا منه قاب قوسين، فقد جاءوا يريدون زيارته معظِّمين لحرمته إذ ساقوا معهم الهدي وجعلوا السيوف في أغمادها ولم يجيئوا بنيَّة الحرب.

ثم انتهى الأمر إلى عقد هدنة ولكن بشروط رآها الصحابة مجحفة في حقهم فأظهروا استياءهم وعدم قبولهم لها ولكن رسول الله ﷺ أمضاها لأنه كان يرى الأمور بمنظار آخر فقد كان ينظر إلى مصلحة الإسلام ولكن بنظرة مستقبلية خفيت حكمتها عن الصحابة رضوان الله عليهم وكادت تحدث فتنة حينما أمرهم الرسول ﷺ بالتحلل من إحرامهم مع أنهم لم يؤدوا عمرتهم التي خرجوا من أجلها ولكن الله سلم إذ أنزل السكينة عليهم وألزمهم كلمة التقوى فانصاعوا لأمر الله وأمر رسوله ﷺ فكانوا بذلك أحق بكلمة التقوى وأهلاً لها وذلك بعد أن ثبتهم الله

وحبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وعصمهم من الزلل والارتداد وحبوط الأعمال وبعد أن كره إليهم الكفر والفسوق والعصيان فعافت نفوسهم الفسوق بعد الإيمان ونجاهم الله بتقواهم كما قال عز وجل: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ [الزمر: ٦١].

وهكذا تتضح لنا معالم السورة ولكن لابد من ربط آياتها بالأحداث التي وقعت في سورة «الفتح» قبلها فقد جاءت سورة «الحجرات» بعد سورة «الفتح» فكانت بمثابة التعقيب والتهذيب والإرشاد والتوجيه.

فالله عز وجل قد امتحن قلوب الصحابة وهو يعلم من الأزل أنها ستجتاز هذا الاختبار وأن قلوبهم ستنال وسام التقوىٰ عن جدارة واستحقاق، فالله هو الذي يصطفي من عباده ما يشاء ويختار كما قال عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] وكما قال أيضًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] وكقوله في سورة «الفتح»: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨] وكآيتنا هذه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

فهؤلاء الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ هم الذين لا يعترضون علىٰ حكمه إذا حكم ولا يتقدمون عليه برأي أو قول أو عمل بل يلزمون غرزهم ويقفون عند حدودهم ويمتثلون أمر ربهم وأمر رسوله ﷺ فمثل هذا التعظيم والتوقير لرسول الله ﷺ ومثل هذا الأدب في حضرته الشريفة هو الذي جعلهم أهلاً لهذا الثناء من ربهم وهو من جانب آخر يدل علىٰ عظم مكانته ﷺ عند ربه عز وجل ولا أدل علىٰ ذلك من أنه رتب المغفرة والأجر العظيم علىٰ التزام الصحابة بالأدب في حضرته المباركة فالأدب مع رسول الله ﷺ من أسباب حصول الثواب وقبول الأعمال.

* * *

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٤، ٥].

من إعجاز لغة القرآن

هاتان الآيتان تتكلمان عن رجال من الأعراب، وهم أهل البادية، وفدوا على رسول الله ﷺ وكان في إحدى حجرات نسائه في وقت القيلولة وهو وقت سكون وراحة، ولم يتريثوا قليلاً حتى يخرج إليهم من تلقاء نفسه ولكنهم تعجلوه وأزعجوه بأصواتهم العالية ولم يراعوا حرمته ولا حقه في وقت يخلو فيه إلى نفسه ويقضي فيه مصالح أهله، ففعلوا خلاف ما يقتضيه العقل وصدر عنهم ما ينافي خلق الصبر ولذلك عاب عليهم القرآن صنيعهم هذا بقوله: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** ﴾ [الحجرات: ٤] ومع ذلك أنصفهم فقوله: ﴿ **أَكْثَرُهُمْ** ﴾ فيه احتراس فهو يدل على أن بعضهم لم يكن راضيًا عن هذا التصرف الذي خرج عن حدود اللياقة والأدب.

والنداء فيه رفع الصوت بخلاف المناجاة فهي بصوت خفيض كما جاء في سؤال للرسول ﷺ: (أبعيد ربنا فنناديه أم قريب فنناجيه؟) فنزل قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ولذلك أمرنا الله أن نخفض الصوت ونحن ندعوه فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وأثنى على زكريا عليه السلام وذلك في قوله: ﴿ **إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا** ﴾ [مريم: ٣]، فهذا من تمام الأدب مع الله عزَّ وجلَّ ومع رسوله ﷺ.

فقد نهانا اللَّه أن نخاطبه ﷺ كما ينادي بعضنا بعضًا فنقول مثلاً: (يا عليّ، يا عمر) وكما فعل هؤلاء الأعراب فقالوا: (يا محمد، اخرج إلينا). بل ينبغي أن يُقال له: (يا رسول اللَّه، يا نبي اللَّه)، على جهة التوقير والتبجيل ولذلك قال عزَّ وجلَّ: ﴿لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، وقال هنا أيضًا: ﴿لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢].

ففي قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ جاء النداء على إطلاقه مما لا يليق بالأدب الواجب لجنابه ﷺ، فينبغي في حقه المناجاة وخفض الصوت والجناح كما في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ [المجادلة: ١٢]. وسنتكلم عن ذلك بمزيد من التفصيل إن شاء اللَّه عند الكلام عن الأدب في حضرة الرسول ﷺ.

والآن لنقفْ وقفةً ولنقمْ بجولةٍ لا غنى لنا عنها مع كلمة «العقل» في لغتنا العربية لنرى ثراء معانيها على نحو لا تجده في أي لغة أخرى وليس هذا تعصبًا بل هو من باب إحقاق الحق ورفعًا لهذا الظلم عن هذه اللغة العظيمة التي لم يعرف قدرَها بنُوها وستلمس ذلك بنفسك وتعرف قدر لغتك وذلك كلما وقفت على طرف من إعجاز هذه اللغة التي شرفها الله بأن جعلها لغة القرآن والتي لا يمكن فهم آياته الكريمة كما ينبغي إلا بالغوص في معاني كلماتها ومعرفة أصولها التي كان يستعملها العربي وقت نزول القرآن والتي كان يعي جيداً أبعادها وجذورها وارتباط ألفاظها وتداعي معانيها التي كانت تقفز سريعًا إلى ذهنه عندما يسمع آيات القرآن فيفهم مراميها فتحدث في نفسه أثرها الأخَّاذ ويسري في قلبه سحرُها النفَّاذ الذي يأخذ بمجامع النفس إلى ساحة الإيمان كما حدث مع عمر بن الخطاب حينما سمع آيات من القرآن وقد كان هذا هو الحال مع كثير من الصحب الكرام.

والعقل: هو ما يقابل الطبع أو الغريزة التي لا اختيار لها، فالعقل والغريزة يقفان على طرفي نقيض، ولذلك نقول: (الإنسان حيوان عاقل) أي: له عقل يحكمه في

أمور حياته حتىٰ لا تستبد به الغريزة فهو يحكِّم عقلَه بخلاف سائر الحيوانات التي تحكُم تصرفاتِها الغرائزُ وتسيطر عليها الشهوات.

ونقول: عقل فلان أي: أدرك الأشياء علىٰ حقيقتها فاختار النافع وترك ما سوىٰ ذلك، نقول: عقل الغلام إذا أدرك ومنه: ما فعلت هذا مذ عقلت. ويقال: عقل الدواء بطن المريض إذا أمسكه بعد استطلاقه ويقال: عقلت المرأة شعرها إذا حبسته ولم ترسله، ويقال: عقل الظل إذا انقبض وانزوىٰ عند انتصاف النهار. والعقيلة من النساء: المرأة المخدرة أي: المحبوسة في خدرها أي: بيتها وجمعها: عقائل وسميت المرأة بذلك لأنها تحرَس وتُصان.

ورجل عاقل أي: جامع لأمره ورأيه، مأخوذ من: عقلت البعير إذا جمعت قوائمه. فعقلَ البعير: إذا ثنىٰ ذراعه مع ساقه أو ضم رسغ يده إلىٰ عضده وربطهما معًا ليبقىٰ باركًا. وهذا الحبل الذي يربط ويشد به يسمىٰ عقالاً والجمع: عُقُل، وقيل العاقل: الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها من قولهم: اعتُقلَ لسانه: إذا حبس عن الكلام ومنه: المعاقل وهي الحصون التي تمنع من فيها.

وأطلق العقل علىٰ الدية التي تدفع لأهل المقتول، فيقال: عقله إذا وداه أي: دفع عنه الدية وأصل ذلك أن الدية كانت إبلاً تعقل أي تربط بأفنية البيوت ثم كثر استخدام ذلك فصارت كل دية عقلاً وإن كانت دراهم أو دنانير.

* * *

أسماء العقل ومعانيها

والعقل بمعناه اللغوي يلتقي مع معنىٰ كلمة «الحجرات» التي سميت بها السورة الكريمة، فمن أسماء العقل: الحجر كما في قوله عز وجل: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥]. أي: لذي عقل والحجر: مشتق أصلاً من الحجارة التي تستعمل في الحجر والمنع والحجز بين الأشياء وفي بناء الحجرات

لما فيها من غلظة وصلابة ومنه: الحَجْر على السفيه أي منعه من التصرف في أمواله لسفه أو ضعف عقل ولذلك يقال: (الحَجْر على من لا حِجْر له) وهي تقابل أيضًا قولهم: (العِقال لمن لا عقل له) وسمي العقل حجرًا لأنه يمنع صاحبه من ركوب الشهوات وإتيان المعاصي والمضارّ كما يردُّ النفس عن هواها ويمنعها من التورط في المهالك فالمرء إذا كان ضابطًا لنفسه رابطًا لجأشه فهو ذو حجر أي: ذو عقل.

ومن إعجاز اللغة العربية أن مقلوب كلمة «حِجْر» هو كلمة «حَرَج» والتي تعني الحبس والضيق كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ**﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقد وردت مشتقات العقل في القرآن حوالي خمسين مرة ولكنها لم ترد إلا بصيغة الفعل ولم ترد بصيغة الاسم فلم يأت في القرآن لفظ «عقل» أو «عاقل»، فالعقل ليس مجرد اسم يوصف به الإنسان بل هو فعل يتلبس به المرء ويصدر عنه فهو يأتي في القرآن بمعنى الفهم والإدراك والعلم الذي يترتب عليه أثر أو يقترن به عمل كما في قوله عز وجل: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [الحديد: ١٧] أي رجاء أن تعقلوها وتعملوا بها.

ومن ثم يتضح لنا أن العقل في القرآن ليس عقلاً نظريًا يقوم على التجريد بل هو العقل العملي الذي له القدرة على التمييز وإمساك النفس عما لا يليق ومنعها من كل أمر قبيح ودفعها إلى فعل الخير وكفها عن الشر فهو لا يراد به مجرد العلم النظري الذي لا يعمل به صاحبه ولا العمل بلا علم بل هما معًا ولذلك قال أصحاب النار: ﴿**لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [الملك: ١٠]. فلا يسمى عاقلاً إلا من عرف الخير فطلبه وعرف الشر فتركه ومن فعل ما يعلم أنه يضره فهو بمنزلة الجاهل الذي لا عقل له.

وأيضًا من أسماء العقل «النُّهى» كما في قوله عز وجل: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ**

﴿لأُولِي النُّهَى﴾ [طه: ٥٤] وسمي العقل بالنهى لأنه ينتهي إليه الفهم والفطنة والذكاء ولذا يزجر صاحبه وينهاه عن قبيح الأعمال فهو نهاية ما يعطى الإنسان من الخير والصلاح.

ولذلك يلتقي «العقل» مع معنى «التقوى» التي وردت في الآية السابقة والتي جاءت في الآية الأولى من هذه السورة فكلاهما يمنع صاحبه من اقتراف الذنوب أو فعل ما لا يجوز، فتقوى الله والخوف منه تستلزم طاعته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه وبهذا الاعتبار يسمى العقل لبًّا. واللب: هو العقل الخالص من الشوائب والمصفى من الأكدار ومنه: أولو الألباب الذين يتصفون بالحكمة وينتفعون بالذكرى ويأتي في القرآن مدحًا لهم وثناء فلهم نصيب وافر من الفهم والإدراك فقد ارتقوا إلى منزلة الرسوخ في العلم والتمييز بين الحسن والأحسن فضلاً عن المنافع والمضار كما قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨].

كما أن العلم والإدراك كلاهما يرتبط بخشية الله كما في قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. ولذلك يأتي «أولو الألباب» مقرونًا في القرآن بأصحاب الخشية والتذكر والاعتبار الذين تفيض منهم العبرات والذين يعبرون من الجهل إلى العلم والإدراك والذين يهجرون سبيل الجهلاء والسفهاء إلى سبيل أهل الحكمة والرشاد فكما قال عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١] قال أيضًا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٦]..

فأولو العقول والألباب هم أهل الخشية والخوف من الله وهم أيضًا أولو الأبصار الذين قال الله في شأنهم: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣] وقوله أيضًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] فالتبصر: هو تبين الأمر وانكشافه وتجليه للبصيرة فهم الذين يحجزهم

تبصرهم عن استمراء المعاصي إذا وقعوا فيها فتنقشع عنهم الغمة ويثوبون إلى رشدهم من قريب.

ولذلك فمن خصائص العقل: الرشد انظر إلى قوله عز وجل: ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ** ﴾ [هود: ٧٨]، وهو تمام النضج الذي يمنع صاحبه عن فعل ما ينكره العقل السليم وأصل الرشد من الرشادة وهو الحجر الذي يملأ الكف.

وبهذا يلتقي الأصل اللغوي لكلمة الرشد مع الأصل اللغوي لكلمة العقل وكلمة الحجر التي اشتقت منها اسم سورة الحجرات ويلتقي ذلك مع أصل كلمة التقوى التي تعني الاتقاء والاجتناب كما سيلتقي ذلك مع معنى كلمة الصبر التي جاء ذكرها في الآية التالية من سورة الحجرات: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ** ﴾ [الحجرات: ٥] فأصل كلمة الصبر هو: الحبس والمنع وسنبين ذلك أيضًا عند كلامنا عن الرشد عند قوله عز وجل: ﴿ **أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** ﴾ [الحجرات: ٧] وعند كلامنا عن الصدق عند قوله: ﴿ **أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾ [الحجرات: ١٥] فأصل كلمة الصدق من الشدة والصلابة من قولهم: رُمح صَدْق أي فيه شدة وصلابة فكل هذه الألفاظ الكريمة والتي وردت في سورة الحجرات تتفق وتلتقي عند معاني المنع والكف والإمساك.

وهذا ما يعبر عنه اختيار اسم سورة «الحجرات» التي جاءت لتبرز معاني الترك والاتقاء وتركز على جانب النهي والاجتناب فهذا هو سبيل الإكرام وسبيل السعادة والسلامة يوم القيامة كما قال عز وجل في سورة «الحجرات»: ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات: ١٣] وذلك بعد أن ذكر ما ينبغي علينا اتقاؤه والابتعاد عنه، وهذا طرف من إعجاز القرآن ممثلاً في سورة الحجرات التي تدندن آياتها وتدور حول الكف والزجر والامتناع والبعد عن إيذاء الناس.

حجرات النبي ﷺ

والحجرات جمع حجرة وهي الموضع الذي يحجره الإنسان لنفسه بحائط أو نحوه ويمنع غيره من أن يشاركه فيه، فهي مساحة من الأرض يمنع من هو بخارجها من الدخول فيها إلا أن يؤذن له إذ لا يجوز الاعتداء عليها أو تجاوز حدودها لأنها أصبحت لها حرمة وخصوصية.

وهؤلاء الأعراب كان عليهم حين رأوا تلك الحجرات التي بنيت بالأحجار أن يعرفوا أن لها حرمة ينبغي ألا تنتهك وأن حماها ينبغي ألا يستباح وأن صاحب هذه الحجرات ينبغي ألا تقتحم عليه خلوته دون استئذان وأنه ينبغي أن يعزل عنه كل أنواع الأذى والإزعاج حتى ينعم في بيته بحقه في الأمن والهدوء والاستقرار، فالإسلام قد كفل للبيوت حقوقًا وجعل لها حرمة بحيث لا يدخلها أجنبي إلا بعد استئذان، كما بينت ذلك آيات سورة النور، قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٧، ٢٨].

وقد تكفلت الآيتان رقم (٥٨ و٥٩) من سورة «النور» ببيان حكم الخدم والأبناء صغارًا أو كبارًا في الدخول على الأبوين قال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٨، ٥٩].

فهذه الأوقات الثلاثة هي مظنة كشف العورات؛ لأن العادة جرت بتخفف الناس فيها من الثياب، وكما بينت آيات سورة النور حرمة بيوت المسلمين وحفظت لهم حقوقهم فيها فقد تكفلت آيات سورة الأحزاب بحفظ حرمة بيوت النبي ﷺ فحرمته أشد فكما حفظت له حرمته في حياته فإنها حافظت عليها بعد مماته وليس هذا لأحد إلا لشخص رسول الله ﷺ قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الاحزاب: ٥٣].

ولننظر إلى الآية من بدايتها يقول عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الاحزاب: ٥٣].

فقد نهوا عن الدخول قبل الميعاد المضروب لهم حضورهم فيه مع كونهم مدعوين فالدعوة لها وقت ينبغي أن يراعى فليس لهم الحق أن يتعجلوا المجيء قبل ذلك بساعات مما يؤذي قلبه الشريف بشغل وقته فيما لا يعنيه وبتضييق المنزل عليه وعلى أهله.

فوجود الحجرات إذن كان ينبغي أن يكون مانعًا لهؤلاء الأعراب عما صدر منهم من تجاوز وعدوان وأن ينبههم أن هناك حرمة ينبغي أن تراعى وتصان، وإلا فلماذا إذن كان بناء الحجرات وإقامة الجدران؟! وقد قال أحد المتطفلين لفتاة كانت تحمل إناء: ماذا في الإناء يا فتاة؟ فقالت له: لماذا إذن غطيناه؟

فما حدث منهم يعتبر انتهاكًا صارخًا لكل الآداب والأعراف وللحكمة التي من أجلها بنيت البيوتَ وأقيمت الأسوار وأغلقت الأبواب وجعلت عليها الأقفال، قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: ٨٠] فهم بفعلهم هذا كأنهم

نسفوا جدرانها وهدموا أسوارها ونزعوا أحجارها فهم لم يقروا بوجودها ولم يعترفوا بحرمة أهلها ولم يرقبوا فيهم إلاً ولا ذمة. فالحجرات رمز لمعالم هذا الدين الشامخ الذي جاء ليصون كرامة الإنسان ويعلي من شأنه ويحفظ له حقوقه وذلك برسم الحدود الفاصلة التي تحجز بين الناس وتحول بينهم وبين التجاوز والعدوان.

* * *

صفات أهل البادية

ومن هنا يظهر التقابل بين الحجرات وبين الأعراب، فالأعراب هم بدو الصحراء تقوم حياتهم على التنقل والترحال بحثًا عن الكلأ والماء، فهم لايعرفون الاستقرار أو بناء الحجرات بل بيوتهم مصنوعة من جلود الأنعام يحملونها على ظهور الجمال كما قال عز وجل: ﴿**وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ**﴾ [النحل: ٨٠] فهم يعيشون في صحراء مترامية الأطراف ولا شيء يحد من اندفاعهم أو يوقفهم عن البغي والعدوان فكل شيء أمامهم مكشوف وبادٍ للعيان فالبَدْوُ من البُدُوِّ والظهور والانكشاف ولذلك فهم لا يعترفون بالحواجز أو الحدود أو الأسوار أو الحجرات. وهكذا فإن لفظ البداوة إنما يكون على النقيض من لفظ «الحجرات» أو لفظ «الحضارة».

ولذلك قال عز وجل: ﴿**الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [التوبة: ٩٧، ٩٨]، وكلمة «أجدر» الواردة في الآية بمعنى أحق وأولى، نقول: جدير بك أن تفعل كذا أو الأجدر بك أن تفعل كذا أي: الأحق بك والأولى بك أن تفعل كذا ولكنه عز وجل لم يستعمل أولى أو أحق بل قال: ﴿**أَجْدَرُ**﴾ والكلمة مأخوذة من الجدار وهو الحائط